الحلقة الثالثة عشرة

د . يوسف إدريس

open-kandil.com

بقدر ما كان يدهشني.. بقدر ما كان يسعدني اكتشافي لهذا العدد الكبير من الأطباء المبدعين في القصة القصيرة، وفي الرواية، وفي المسرح، وفي كتابة المقال الصحفي، وفي الصحافة بصفة عامة.. على مساحة الوطن العربي كله وبامتداد سنوات القرن العشرين الماضية.

لقد سطعوا، ولمعوا نجوماً في سماء الإبداع: نثراً وشعراً ومسرحاً وصحافة.. بدءاً من الدكتور زكي أبو شادي صاحب مدرسة أبوللو الشعرية ومجلتها الشهيرة، ومروراً بسندباد القلم والرحلات الدكتور حسين فوزي.. إلى صاحب التأملات الإيمانية والفكرية الدكتور مصطفى محمود.. إلى نجم الإبداعات الصحفية الدكتور صلاح حافظ في مجلة «روزاليوسف» في السبعينات والثمانينات، الذي جمع بين كتابة المقال والريبورتاج الصحفي والقصة القصيرة التي أذهلت إحداها وهي قصة «الذبابة» نجم حلقتنا هذه الدكتور يوسف إدريس إلى الحد الذي جعله يتصور بأن كاتبها لابد وأن يكون من غير البشر..!! وعندما علم بأنه طالب معه في كلية الطب، وأنه زميل دفعته أخذ يتساءل حائراً: كيف يتسنى لطالب طب مثله أن يكتب قصة بهذه الروعة..؟!

ولأن أعداد هؤلاء الأطباء المبدعون شعراً ونثراً ومسرحاً وصحافة.. أكثر من أن يتم جمعهم والحديث عنهم في فصل واحد.. فإنني أستمحيكم عذراً في أن أذكركم – وعلى عجل – بواحد منهم.. هو الدكتور إبراهيم ناجي أستاذ الرومانسية الشعرية.. صاحب ديواني «من وراء الغمام» و«ليالي القاهرة»، والذي قدم أول ترجمة لأهم وأجمل دواوين الشعر الفرنسي: «أزاهير الشر».. لشاعره العظيم: «بودلير»، والذي يكفي أن أذكركم.. بأنه هو صاحب القصيدتين اللتين جمعت بينهما «أم كلثوم» في تلك الرائعة الغنائية الفريدة التي عُرفت بين ملايين المستمعين بـ «قصيدة الأطلال»، والتي لا أظن أن أحداً ممن استمعوا إليها يمكن أن ينساها أو ينسى ختامها الدرامي الرائع والمثير:

«يا حبيبي.. كل شيء بقضاء
ما بأيدينا.. خلقنا تعساء
ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعدما عز اللقاء
فإذا أنكر خل خله
وتلاقينا لقاء الغرباء
ومضى كل إلى غايته
لا تقل شئنا.. فإن الحظ شاء»

.. ثم، لأقف طويلاً في حلقتنا هذه عند الأديب القاص والروائي المسرحي، وصاحب أكثر المقالات الصحفية حدة والتزاماً وصدقاً..

في صحيفة الأهرام القاهرية وعلى مدى العقدين الأخيرين من حياته القصيرة: الأستاذ الدكتور يوسف إدريس.

* * *

لم يكن في ولادة هذا الأديب الطبيب.. أو هذا الطبيب الأديب الفنان، والشجاع الجريء ، والإنسان المثقل الوجدان بأحلام وأفكار «العدل الاجتماعي».. مع نهاية الربع الأول من القرن العشرين.. ما يستلفت الانتباه، فقد ولد من أسرة زراعية متوسطة الحال.. وكان أميز ما يميزها أن بها عدداً من خريجي «الأزهر».. وقد درس بالمدارس الحكومية المجانية، ثم التحق بكلية الطب، ليتخرج منها عام ١٩٥١م.. وهو في الرابعة والعشرين من عمره، فكان تخرجه المبكر أحد دلائل نبوغه «العلمي».. لكن نبوغه الأدبي كان قد سبق ذلك.. عندما بدأ في نشر قصصه القصيرة مع إطلالة عام ١٩٥٠م.. وهي التي شكلت فيما بعد مجموعته القصصية الأولى التي نشرت عام ١٩٥٤م وحملت عنوان «أرخص الليالي»، ثم أعقبتها بعد عام مجموعته الثانية والتي جاءت تحت عنوان «العسكري الأسود»، وهي تلفت أنظار النقاد نحوه ليروا فيه تباشير ميلاد قاص جديد مختلف عن كل من سبقوه.. في سهولة وسلاسة أسلوبه، ودقة وتيليغرافية أوصافه.. وفي تلقائية انتقائه لشخصياته من عرض الحياة: من الشوارع المزدحمة في المدن كقصة «الأحرار».. ومن «العِزَب» وغيطان الفلاحين كقصة «حادثة شرف».. ومن طرقاتِ مصر الطويلة والنائية كقصة ذلك «القهوجي» البائس التي أسماها وأسماه بـ «صاحب مصر».. حتى

قالوا عن تلك المجموعة بـ «أنها البوابة الفعلية للواقعية المصرية» في القصة القصيرة.. بينما رفعها البعض الآخر إلى ما هو أكبر وأعلى عندما قال بعضهم عنهما بـ «أنها تجمع بين سمات دستوفيسكي وسمات كافكا».. وهما علما القصة والرواية الكبيرين في روسيا وألمانيا.. بل وفي العالم بأسره، أما عندما قرأ الدكتور طه حسين مجموعته التي ظهرت بعنوان «جمهورية فرحات».. وقد كان من بينها، قصة تحمل العنوان نفسه وهي تروي حكاية شرطي مسن برتبة «صول».. اسمه «فرحات».. يعمل في أحد مراكز الشرطة، ولكنه كان يحلم «بجمهورية تشفي شقاءه وشقاء النماذج البشرية التي تتوارد عليه كل يوم».. فقد قال عن الكتاب الذي ضم تلك المجموعة «أجد فيه من المتعة والقوة ودقة الحس، ورقة الذوق، وصدق الملاحظة، وبراعة الأداء.. مثل ما وجدت في كتابه الأول (أرخص الليالي).. على تعمق للحياة، وفقه لدقائقها، وتسجيل صارم لما يحدث فيها».. ليتتابع صدور مجموعاته القصصية بذلك التدفق الساحر العجيب من «لغة الآي آي».. إلى «العتب على النظر».. إلى «آخر الدنيا» الرائعة التي كانت تروي حكاية غلام شديد الفقر. شديد التفوق في مدرسته التي يقطع من أجل الوصول إليها مع غبشة فجر كل يوم أربع كيلومترات في ذهابه، ومثلها في عودته. ماتت والدته وانصرف والده ليجوب القرى والمدن الصغيرة حتى آخر الدنيا بحثاً عن لقمة العيش بعد أن تركه في رعاية والدته/ جدة الغلام، وفي إحدى أوبات والده ترك له قطعة نقود ثمانية الشكل.. تساوي قرشين أو «نصف فرنك» بلغة

أشقائنا المصريين.. فكان يتحرص عليها وهو ينقلها من «بنطلون» المدرسة الوحيد إلى جلباب نومه.. ومن الجلباب إلى «البنطلون».. ويده عليها في كل حين تتلمسها وتتحسسها. وتطمئن إلى وجودها.. فقد اعتقد بأنها هي التي ستذهب به إلى آخر الدنيا.. ليرى والده الذي يذهب إلى هناك سعياً، في طلب العيش.. كما كانت تقول له جدته، وفي ذات يوم.. فُقدت منه تلك القطعة الفضية الثمينة.. فظل يبحث ويعيد البحث عنها في كل مكان إلى أن تذكر أنها ربما سقطت منه في أحد الغيطان أثناء عودته من المدرسة، ليذهب إلى تلك المنطقة.. ويزرعها طولاً وعرضاً حتى وجدها، ومع سعادته بالعثور عليها.. اكتشف أنه أصبح قريباً من تلك المنطقة المحاذية لمحطة السكة الحديد الذي حذره والده من الاقتراب منها، ولم يعد يدري من شدة تعبه ما الذي حدث له بعد ذلك.. حيث التهمه القطار، وذهب إلى عالم آخر.. ربما إلى آخر الدنيا.

مع تتابع نشر مجموعاته وقصصه القصيرة في ملحق جريدة الجمهورية الأدبي الرائع الذي كان يتولى الإشراف عليه الكاتب الفيلسوف والشاعر الفنان: كامل الشناوي، والذي كنت أتابع قراءته أسبوعياً عندما كنت طالباً في جامعة الإسكندرية.. كانت دائرة الإعجاب بالدكتور يوسف إدريس تنتقل من النقاد إلى جماهير القراء بطبقاتهم المختلفة.. وصولاً إلى سوادهم وإلى البسطاء منهم الذين كانوا يشكلون في وعيه ولاوعيه بؤرة اهتمامه.

لقد كنت أقرأ تلك القصص في حين صدورها.. مثل بقية

القراء والمعنيين من زملائي في البعثة.. ولكن يبدو أنها لم تكن قراءة متأنية فاحصة بالقدر الذي تستحقه، إذ إنني عندما عدت وتلقيت بعد ذلك بعشر سنوات أو أكثر مجموعته القصصية: «بيت من لحم» وقد أهداني إياها ربما صديقي الأديب القاص اللامع الأستاذ عبدالله باخشوين.. أصابني ذات الذهول الذي أصاب الدكتور يوسف إدريس نفسه عندما قرأ قصة «الذبابة» لزميله الدكتور صلاح حافظ ولم يصدق أن طبيباً مثله يمكن أن يكتب قصة بهذه الروعة.

إن كلمة رائعة هي وصف شديد التواضع لمجموعة «بيت من لحم»، فهي أروع.. وهي أجمل.. وهي أمتع، وكان حقاً أن يبوئه النقاد مكانة «مهندس القصة القصيرة» في العالم العربي.. وكما بوأ العالم الغربي من قبل زميله الطبيب والأديب الروائي الدكتور «أنطوان تشيكوف» مكانة مهندس القصة القصيرة في العالم الغربي.

* * *

مع تواصل عطاءات الدكتور يوسف إدريس القصصية قصيرها وطويلها.. كان اهتمامه في نهايات الخمسينات من القرن الماضي بـ «المسرح» بدأ يتسع ويقلقه ويمرضه، فقد كان يريد مسرحاً آخر غير الذي تعارفت عليه مصر والعالم العربي.. نقلاً عن أوروبا، فمآسي يوسف وهبي وجورج أبيض.. ومسرحيات الريحاني وعلي الكسار الساخرة الضاحكة والعميقة في لمسها لجروح المجتمع ومشاكله.. كلها ذات نمط غربي أوروبي واحد: مسرح وستارة وجمهور وإضاءة وفصل أول وثان وثالث، وحتى يعثر

Obeikandl.com

على ذلك المسرح الجديد والمغاير في ثقافته وتركيبته.. حوَّل قصته «جمهورية فرحات» إلى مسرحية من فصل واحد.. فنجحت عند تمثيلها نجاحاً باهراً لم يكن يتخيله.. الأمر الذي حفزه على كتابة مسرحيته الثانية والهامة ذات الفصل الواحد أيضاً: «ملك القطن» التي حملها كل رؤاه الفكرية نحو العدل الاجتماعي، منطلقاً من الصراع حول الأرض الذي كان يدور بين «السنباطي» مالكها و«قمحاوي» أجيرها، والتي أعجبت كل من شاهدها على المسرح.. ليستقبلها الناقد الأدبي الكبير الدكتور علي الراعي مفتوناً بها بعد أن قرأها نصاً وشاهدها عملاً على المسرح.. قائلاً: «لقد بدأ عهد الفلاحين في المسرح.. بظهور ملك القطن».. ليدفعه ذلك إلى تقديم مسرحيته الثالثة: «اللحظة الحرجة».. التي عانت كما عانى الدكتور يوسف إدريس من قسوة الرقيب، الذي لم يعجبه ما تضمنته من آراء مختلفة عن آرائه..!!

ومع عدم اهتدائه إلى مسرح مصري عربي مختلف.. إلا أنه ظل يواصل كتاباته للمسرحيات ذات الفصل الواحد فكتب مسرحية «الجنس الثالث».. فمسرحية «المخططين».. ثم مسرحيته الشائقة «البهلوان» التي كانت تتحدث عن حياة وأفعال أحد رؤساء تحرير الصحف المصرية في السبعينات، ليتوقف عن الكتابة بعد ذلك، ويستغرق في قراءاته بحثاً عن ذلك «المسرح الجديد» أو حالة «التمسرح» التي اعتقد بوجودها في المجتمع العربي.. وبين أناس نراهم ونسمعهم وهم ينتقدون المجتمع بصورة تجمع بين الضحك والجد دون أن يكون لهم تطلع بأن يكونوا «ممثلين» في السينما

أو على خشبة المسرح تُجرى معهم اللقاءات الصحفية، وتُلتقط لهم الصور وهم يتحدثون عن ذكرياتهم.. ونجاحاتهم أو فشلهم أو حبهم الأول، فكان أن قادته قراءاته وتأملاته.. إلى استرجاع حالة «القرقوز المصري». خفيف الدم والذكي بالفطرة والحاد في صوته ولسانه، والذي عادة ما يشتبك مع حماته الظالمة.. ثم ينتهي الاشتباك بينهما إلى (علقة) ساخنة عادلة تتلقاها تلك الحماة المخرّبة، ثم إلى «خيال الظل».. ثم إلى «الدائرة» التي سرعان ما كانت تنشأ وسط المقاهي ليدخلها متحدثون ساخرون ناقدون، يُضحكون الناس وهم ينتقدونهم، وينتقدونهم وهم يضحكونهم.. ليصل بعد ذلك إلى فكرة «الفرافير» والفرفور «الذي لا يكف لسانه عن سلخ الأوضاع والآخرين والأصدقاء والأعداء ونفسه وكل شيء»!! لتقوم في ذهنه فكرة مسرح الفرافير.. ومسرحية «الفرافير».. التي يشارك فيها الجمهور.. والتي لا يوجد فاصل بين الممثلين والجمهور.. ولا ستارة.. ولا مسرح منفصل.. بل «فرفور» يتحدث ويضحك ويُهرج، وينتقد، ويتأوه. يعارضه أو يؤيده جمهور المتفرجين الذين ينتقلون إلى «الدائرة» أو خشبة المسرح..

لقد قدمت «الفرافير» في عام ١٩٦٤م.. وهي بحق أكبر من مسرحية.. إنها إحياء لفكرة.. ودفعها لمقدمة الصفوف.. وقد نبضت بالعديد من الأفكار والرؤى والأحلام..

وعندما مثلت عشرات المرات بنجاح ساحق... باختلاف مواضيعها.. التي تتغير بتغير.. المشاركين فيها، وعندما قلّب

الدكتور يوسف إدريس الطبعة السابعة لنصها الأول.. أدرك أن فكرة «مسرح الفرافير» التي سهر ونام عليها لسنوات قد أخذت تتجسد بين الناس، وهو ما ملأ قلبه سعادة ونشوة.

* * *

لم تشأ الظروف أن ألتقي بالدكتور يوسف إدريس في القاهرة رغم التقارب الفكري الذي يجمعنا، والرسائل التي كان ينقلها بيننا مندوب المجلة التي كنت أرأس تحريرها.. ولكن عندما دعي لحضور إحدى مهرجانات (الجنادرية) في الثمانينات من القرن الماضي.. وبعد أن شارك مشاركة محسوبة في فعالياتها وعاد إلى جدة في طريق عودته إلى القاهرة.. حرصت على لقائه والاستماع إليه والسياحة معه حول الهموم العربية.. لينساب الحوار بيننا حميماً دافئاً وصولاً إلى قضايا الساعة والتي كان من أبرزها آنذاك: آثار التوقيع على «معاهدة كامب ديفيد» التي رفضها أكثرية العرب وإلى حد القطيعة المؤسفة مع مصر، والتي كان هو أحد معارضيها.. ليروي لي ساخراً حكاية ذلك «الحلاّق المصري» الذي كان يملك صالوناً للحلاقة في العاصمة الليبية «طرابلس»، والذي صادف أن ذهب إليه الدكتور يوسف للحلاقة عنده.. لتجره الدردشة مع الحلاق من شأن لآخر.. وكما هي العادة.. ليكتشف أن ذلك الحلاق البسيط قد وقع في فخ الدعاية الأمريكية الإسرائيلية المصرية عن الرخاء الذي سيهبط على مصر بالأطنان بعد توقيع الاتفاقية، وأنه قد أخذ يعد نفسه لبيع صالونه والعودة سريعاً إلى مصر حتى يكون في مقدمة أولئك الذين سينالون نصيبهم من

ذلك الرخاء والخير العميم..!! ثم توقف.. ليطلق ضحكة رنانة، وهويقول: لم أشمت بأحد في حياتي.. كشماتتي في ذلك «الحلاّق».. الذي هرول عائداً فلم يجد شيئاً من أطنان ذلك الخير..!!

لقد أمتعتني أحاديثه.. بمثل ما كانت وماتزل تمتعني قصصه القصيرة المذهلة التي مازلت أعاود قراءتها بين الحين والآخر... فهو بحق أحد عبقريات مصر النادرة فيما كتب من قصص ومسرحيات ومقالات. فقد كان حبر قلمه.. من دموع الناس، وكان مداده من همومهم وقضاياهم ومشاكل حياتهم. كان كما قال «جبران»: «يكتب بدماء القلب».

* * *

وعندما شاءت الصدف السعيدة.. أن أكون من بين مشاهدي حفل توزيع «جوائز الدولة التقديرية» في الآداب والعلوم والفنون الذي كان منقولاً على شاشة الفضائية المصرية.. وجاء الإعلان عن منح الدكتور يوسف إدريس لـ «جائزة الدولة التقديرية» في الآداب عن عام ١٩٩١م.. كنت أقف وسط دهشة عائلتي لأصفق مهللاً سعيداً نشواناً بحصوله عليها..

ولم أكن أعلم كما لم يكن أحد يعلم ساعتها.. بأن خلف تلك اللحظة المضيئة الساطعة في حياة الدكتور يوسف إدريس.. تختبئ لحظة إظلام دامس مفاجئة.. إلا عندما تلقت الإذاعات والتلفزيونات والصحف بعد شهور قليلة النبأ الصاعق بوفاته المفاجئة عن أربعة وستين عاماً.. لتستقبل مياه النيل الجارية دموع الملايين من محبيه وعشاقه..